سينما

«قلب الطاولات»

تثوير سينمائي لسؤال الهجرة

فيلم أوروبي جديد يتناول موضوع الهجرات المتنوعة إلى بلاد القارة القديمة، لكنْ بنظرة درامية وسينمائية مختلفة، فكراً واشتغالاً جمالياً

فيس قاسم

تستبدل الألمانية أنجلينا ماكاروني زوايا النظر السائدة اليوم في البلدان الغربية، المتعلّقة بموضوع الهجرة وأسئلتها، عبر مراجعة التقسيم الحاصل فيها بين طرفين: المهاجرون (هم) والمجتمع الواصلون إليه (نحن)، الذي يجعل الأول موضوعاً إشكالياً، بينما يُتَجاهَل الثاني ودوره في مصائر حياة الغرباء، القادمين إليه هرباً من أزمات عميقة، أو طمعاً بحياة أفضل من تلك التي يعيشونها في بلدانهم.

هذا التصوّر، المنطلق من دعوة إلى قراءة نقدية وذاتية خاصة بمشهد الهجرة في أوروبا، يستدعي كتابة سينمائية مختلفة بالضرورة، فكراً واشتغالاً جمالياً.

«قلب الطاولات» (2024)، أو «خفي» (ترجمة تقريبية للعنوان الألماني)، يراهن على تجديد لا يصل حدّ التطرّف، بل تحاول ماكاروني الجمع فيه بين الشكل التقليدي للسرد، والتثوير الهادئ من داخله. المعالجة السينمائية المقترحة للموضوع وشكل سردها درامياً، يأتيان في سياق أحداث متشابكة، المهاجر فيها ليس وحده في المركز، بل هناك أيضاً أبناء البلد المتوَرطين في تعقيد وضعه، والمتعاملين معه ككائن هامشي قابل للاستغلال، يَسهل الابتعاد منه حالما يجد الغريب نفسه في محنة، وينتظر منهم مساعدته على تجاوزها.

يضع النصّ السينمائي (سيناريو ماكاروني) السياسة والإرهاب عند نقطتي البداية والنهاية. نقطتان إشكاليتان، بينهما مساحات تشغلها حيوات منغمسة بمشاغلها الحياتية، ومتفاوتة الطموحات والأهواء. لكنْ، ما يحدث بينهما يكفي لكشف معادنها، وتعرية البنية الأخلاقية التي جُبلت عليها. في الغرب، الأنانيات الفردية سمة عامة لسلوكيات الأفراد، ومحرّكها القوي في مواجهة تحديات الحياة. وفي مقابل الجغرافيات الأوروبية، طنجة المغربية، هناك حاجة ورغبة عند الأفراد في تحسين أحوالهم. إنّها تجيز، أحياناً، تخطّي المتعارف عليه من قيم.

في البداية، يظهر بهاء فرانكفورت الألمانية في مشهد بانورامي جميل، يُلتقط بطائرة «درون» من علوّ. فجأة، يتشوّش المشهد إثر سماع دوي انفجار شديد، يهزّ مكاناً ما. في نقطة تفتيش حدود مغربية، تُفتّش سيارة الرسام الإنكليزي ريتشارد (لامبرت ويلسون). بعد السماح له بالعبور، يظهر من بين اللوحات الشاب مالك (حبيب أدا) مُتخفياً وراء إحداها. يصل إلى ألمانيا رفقة فنان مثلي الجنس، يُحبّبه بطريقة تُثير التباساً في توصيفها، كونها علاقة تجمع بين شغف جسدي ورغبة في مساعدة نزيهة.

في المسار كلّه لـ«خفي»، تتشابك العلاقات والمصالح، فيغدو الأمر عصياً على الحكم. هذا تريده ماكاروني من المتفرّج: إبعاده عن الأحكام المسبقة، لأنّها تورّط مالك وغيره في مشاكل لا علاقة لهم بها. التداخل والالتباس في كتابة الشخصيات، وزعزعة أحكام اليقين المسبقة حولها، يخلقان حالة تثوير داخلي للنص، ويستدعيان تفكيراً بتكوينات أبطالها، نفسياً وأخلاقياً.

لانشغاله بمعرض يستعد لإقامته في بريطانيا، يوكل الرسّام صديقته السياسية اليمينية ماتيلدا (باربرا سوكوفا) إيواء مالك فترة وجيزة عندها، ويطلب منها مساعدته في الحصول على إقامة مؤقّتة. بين مواقفها اليمينية المعلنة ضد المهاجرين، ووجود مهاجر غير شرعي في شقّتها، هناك ارتباك حاصل خارج إرادتها. استعانتها بالمحامية أمينة، عربية الأصل (الإيرانية بانافشي هورمازدي)، لإدارة أعمالها، تعمّدٌ يراد به التغطية على مواقفها الحقيقية. بينهما تشابه في ارتباك التكوين. العربية الأصل تريد الألمانية هوية وحيدة لها، بينما السياسية الألمانية تحاول مساعدة العربي، إرضاء لصديقها، ولتاريخ شخصي قديم عندها، يوم كانت ميالة إلى أفكار اليسار في شبابها.

هناك تشويش في موقف الشاب من صلته الجنسية بـ«الرسام البريطاني، المتأتية لا من رغبة داخلية صادقة، بل من حاجة إلى خلاص وجودي ينشده، ويريد الوصول إليه عبر هذه العلاقة. علائق متخلخلة الدوافع، تمنح النص السينمائي ديناميكية تبلغ ذروتها لحظة اتّهام الشرطة لمالك بتورّطه في تفجير فرانكفورت. نقطة النهاية تأتي بعد تقلّبات مواقف أطراف كثيرة من مالك، ومن وجوده غير المرحّب به قريباً منها. تسجيلات كاميرا شارع عمومي تعتمدها الشرطة في تهمتها إياه، وتستند في قناعاتها على ظهوره فيها مع شباب تعرّف إليهم، وأمضى وقتاً قصيراً معهم، بعد أن وجد باب شقة ماتيلدا مغلقاً، فيقرّر تمضية الوقت في الشارع، إلى حين عودتها. تعرّفه السريع إليهم، وعدم اشتراكه معهم في عملهم الإرهابي، لم يشفعا له أمام رجال الشرطة. بعدها، يُتّهم الشاب بارتكاب جريمة خطرة، تعرف السياسيّة اليمينية مدى صدق براءته منها، لكنّها لا تريد التورّط فيها، فتنكره، ولا تستبعد تورّطه فيها. يبتعد الرسام، ولا يبقى مع الشاب إلاّ أمينة، التي توكّل نفسها أمام الشرطة محامية له. بين البداية والخاتمة، تمتلئ المسافة الفاصلة باشتغالات سينمائية رائعة، يُلازمها جمال تصوير وتمثيل بارعين، وفي متنها تتجلّى رؤية سينمائية نقدية لمواقف مسبقة من المهاجرين، وتمنّعاً من الحكم الجاهز على أبطاله وسلوكياتهم، لأن صانعته أرادت أنْ يترفّع نصّها السينمائي عن الحكم على أفعال أبطاله وسلوكهم. لذا، وضعت بينها وبينهم مسافة استثنت منها قليلاً لأمينة كي تعاين بإمعان موقفها الشجاع، المنحاز إلى العدالة، أكثر منه ميلاً إلى العرقي الذي فيها.

هذا يجعل «خفي» متفرّداً بين أفلام كثيرة عالجت أسئلة الهجرة، تجرّأ القليل منها على النظر إلى ذاته بتلك الطريقة الهادئة المستفزّة لعالم مختلّ التوازن، يتلكّأ كثيراً في البحث عنْ الحقيقة، ويتجنّب النظر إلى الأطراف التي تُشكّل مشهد الهجرة بعين عادلة، كتلك التي نظرت فيها أنجلينا ماكاروني الشاب مالك المغربي، وهو يعاني ظلماً كبيراً يلحق به، ويُبدّد كلّ أحلامه.

«قلب الطاولات»: تجديد لا يصل حدّ التطرّف (الملف الصحافي)

أنانيات فردية تسم سلوك أفراد في مواجهة تحديات الحياة

عن جيلٍ تأسيسيّ لتمثيلٍ سيُعطب لاحقاً

نديم جرجوره

عند رحيل ممثل. ممثلة لبنانيَّين، ينتميان إلى زمن قديم يوصف عادةً بـ«الجميل» أو «الذهبي»، في الحياة والعمل والعلاقات، يُطرح سؤالٌ: أهناك قيمة إبداعية في إنتاجات تلك المرحلة، وللممثل. الممثلة فيها فعلٌ أساسيّ؟

مقارنة بالحاصل في راهن، عربي ودولي، مليءٍ بإبداعات مُثيرة لمتعة وَدهشة وحيوية، سيُقال إنّ الفن اللبناني حينها عادي للغاية، بل ربما يفتقر إلى أبرز مقوّمات الصّنعة الفنية، إخراجاً وتمثيلاً وكتابة ومهناً فنية وتقنية. هذا، في بعضه، حقيقيّ، فالأدوات، التقنية والفنية تحديداً، متواضعة للغاية، رغم أنّ بعضها يُعتَبر، في تلك المرحلة، مُتقدّماً وعصرياً. أمّا الإخراج والتمثيل، فيعكسان جماليات، لا علاقة لها بزمن من دون آخر، بل بقدرةٍ على ابتكار جميلٍ وجاذب، إنْ يُكْتَب الحوار بالفصحى أو العامية، والأخيرة موزّعةٌ بين لهجةٍ شمالية لبنانية، ولكنةٍ بيروتية صرفة، وشيءٍ من ريفٍ قروي أحياناً.

في 11 أغسطس/آب 2024، أُعلنَ نبأ وفاة الممثل اللبناني سمير شمص (25 نوفمبر/ تشرين الثاني 1942). هذا دافعٌ إلى إعادة طرح السؤال نفسه، فلهذا الممثل أعمال تلفزيونية وأفلام سينمائية، مُنجزة في مرحلة مليئة بغليان ثقافي وفني واقتصادي وسياحي، بين منتصف ستينيات القرن الـ20 والنصف الثاني من سبعينياته، برغم أنّ اللاحق عليها نابضٌ بإنتاجات تلفزيونية وسينمائية لبنانية، تستحقّ قراءة نقدية، لن تتحرّر من مزيج الفني البحت بالسياسي. الاجتماعي. الحياتي، فالبلد مكوّن من خليطٍ كهذا، في كلّ شيء. سمير شمص، الأشهر تلفزيونياً مع جيلٍ مندثر، يواكب تلك المراحل اللبنانية منذ بدايات انخراطه في التمثيل، عام 1964، الشاهد على ظهوره في «كانت أيام» التلفزيوني (تأليف أنطوان غندور، إخراج باسم نصر)، و«العسل المرّ» لرضا ميسر (تأليف أحمد عزت وميسر نفسه) سينمائياً، علماً أنّ كلّ معلومة تُذكَر في أرشيفٍ لبناني تحتاج إلى تنقيب كثير للتأكّد من صحّتها، فالأرشيف اللبناني، للأسف، غير موثوق به، لانعدام كلّ اشتغال علمي عليه. هذا يحتاج إلى نقاش، بل إلى ممارسة، لكنّ البلد معطوبٌ، ومؤسّساته العامة معطّلة، والخاصة منشغلة بمصالحها.

شهرته التلفزيونية طاغية شعبياً، وهذا طبيعي. فالمرحلة تلك غير مُنتِجةٍ سينمائياً بفعالية كبيرة، مع أنّ أفلاماً عدّة تُنجز، وله في بعضها حضورٌ. إعادة مشاهدة تلك الأفلام كفيلةٌ بتبيان «بهتان» أدائي، فالأداء المسرحيّ لدى البعض أقوى، كما الأداء التلفزيوني لدى بعض آخر. مع هذا، فـ«النجاح» كامنٌ في براعة شمص وزملائه وزميلاته في ابتكار كلّ فعلٍ جميل ومتقن وجاذب من عفوية وبساطةً وعدم ادّعاء وتصنّع. عفوية ترتكز على قناعةٍ عميقة بالفن عامة، وبجعل التمثيل حياةً، لا مهنة فقط. وبساطةٌ تبرز في انفضاضٍ عن كلّ ادّعاء ومبالغة، وفي منح الشخصية مفردات واقعيّة وحقيقية، لتُصبح أقدر على إثارة متعة مشاهدة ومتابعة واقتناع وحبّ.

رغم كلّ رأي وتحليل، لسمير شمص، ولجيله الفني كلّه تقريباً، مكانة بارزة في التأسيس الفعلي لمهنةٍ، سيُفقدها تحوّلها الأخطر لاحقاً كلّ جمالية بريئة، وعفوية صادقة، وجمالٍ مُحبَّب.

سمير شمص... عفوية وبساطة تؤسّسان فعلا تمثيليا صادقا (فيسبوك)

أخبار

◆ أعلنت إدارة «مهرجان فينيسيا السينمائي» اختيارها الجزء الثاني من Horizon: An American Saga لكيفن كوستنر، لعرضه في دورته الـ81 (28 أغسطس/آب . 7 سبتمبر/أيلول 2024)، بعد نحو ثلاثة أشهر على عرض الجزء الأول منه خارج مسابقة الدورة الـ77 (15 . 25 مايو/أيار 2024) لمهرجان «كانّ». وذكرت معلومات صحافية مختلفة أنّ كوستنر «باع بعض ممتلكاته الشخصية (رهن منازله الأربعة) ليموّل الفيلم»، الذي اشترت شركة «نيولاين سينما» (تابعة لأستديو «وارنر إخوان») حقوق توزيعه. الفيلمان، المنتميان إلى الوسترن، يرويان وقائع عدّة عن التوسّع والاستعمار غربي الولايات المتحدة الأميركية، في أعقاب الحرب الأهلية (1861 . 1865).

◆ عشية بدء العروض الدولية لـ Alien: Romulus، يومي 14 و16 أغسطس/آب 2024، قال مخرجه فيدي ألفاريز إنّه تأثّر ببدايات السلسلة المشهورة، عندما كان مراهقاً، مُشيراً إلى أنّ الفيلمين الأولين منها «أساسيان» في عمله، كما في السينما عامة، ومؤكّداً أنّه استلهم أحداث فيلمه هذا من تلك البدايات. وذكرت معلومات صحافية أنّ قصة الفيلم الجديد «تدور في مكان مغلق، في سفينة فضائية»، وأنّ الأحداث تعود إلى زمن أحداث الفيلمين الأولين لريدلي سكوت (1979) وجيمس كاميرون (1986)، عندما اكتشف مسافرون عديدون إلى الفضاء وجود كائنات فضائية غريبة الشكل، ومخيفة.

◆ كتب الزميل المصري كمال القاضي أنّ الفيلم الروائي الأردني «السُلطانة» لهيثم عبد الله «طرح سؤالاً مهمّاً عن مفهوم الهوية ومعناها، وأثرها النفسي والوجداني والثقافي والتاريخي»، مضيفاً أنّ الفيلم «ناقش بشكل صريح الدعاوى المزعومة عن تفريط الفلسطينيين في أراضيهم ببيعها إلى إسرائيل». والعنوان اسم البطلة التي تُمثّل العمود الفقري للأسرة الفلسطينية، التي يطمع ابنها الأكبر في الثراء على حساب التاريخ والجغرافيا، فيضغط على أسرته للموافقة على بيع ما بقي من ميراث، كي يتسنّى له شراء سيارة تُسهّل له التنقّل، وتُحقّق الراحة والرفاهية.

أقوالهم

الهوس الذي نلجأ إليه. الحزن. إلخ. لا أعرف كيف تعمل كل تلك الانفعالات بالضبط. لكنّي أفهم أني بحاجة إليها لأستخدمها في عملي الفني. هذا صعبٌ بالنسبة إليَّ شخصياً، غالباً. عليَّ التعامل مع هذا دائماً والتغلّب عليه وفهمه. إنّه جزء من هويتي، وشيءٌ أفهمه الآن وأتعامل معه بشكل أفضل.

فاي داناواي

لا تمتلك سارة كونور (ليندا هاملتون/WireImage)، بطلة «ترمينايتور» (1984) لجيمس كاميرون، أيّ قدرات خارقة تفوق قدرات المرأة العادية، لكنّها تبقى الشخصية المحورية في القصة. إنها ليست «وندر وومان» (المرأة الخارقة)، لكنْ، كلّ الأحداث تتمحور حولها.

إليزابيث ميلر

كثيرون لا يدركون جرأة إليزابيث تايلور (WireImage) وتفرّدها في اختياراتها السينمائية. فبالإضافة إلى أدوارها المعروفة، لديها أفلامٌ عدّة غير تقليدية، ومفاجئة. حتى أفلامها في هوليوود تتميّز بطابع متفرّد معيّن. كان القلق والغيرة الجنسية من سماتها البارزة، ونادراً ما تجدها في أدوار تقليدية مملّة، على نمط دوريس داي.

جيفري ماكناب

أفعالهم

Vittorio لأليسّاندرو كاسّيغولي وكايسي كوفمان، تمثيل **أنا أماتو** (فيسبوك): ياسمين (40 عاماً) لديها كلّ ما تريد: زوج مخلص، وثلاثة أبناء محبّين، وصالون مزدهر لتصفيف الشعر في جنوب نابولي. بعد وفاة والدها، يُراودها حلمٌ متكرّر: فتاة صغيرة بين ذراعيها، فترغب في التبنّي، مُخاطرةً بكلّ شيءٍ وبكلّ أحد.

Dad's Lullaby **لِسيا دِياك** (IMDb): بعد ثلاثة أعوام على حرب أوكرانيا . روسيا، يعود سيرغي إلى منزله مُرهَقاً بشدّة. تتجلّى صدمة الحرب عندما يبدأ الزوجان انتظار طفل. بعد غزو واسع النطاق، يضطر سيرغي إلى الدفاع عن أوكرانيا مجدّداً، ما يفتح مجدّداً جراح الحرب ومآسيها.

A Sacrifice لجوردان سْكوت، تمثيل إيريك بانا و**سادي سينك** (Getty): بعد غرامها بشابٍّ، تجد شابّة أميركية نفسها ضحية طائفة دينية متشدّدة، يسيطر عليهما (الشابّة والطائفة) زعيم يتمتّع بكاريزما قوية. هذا يستدعي من والدها، الطبيب النفسيّ المتخصّص بعلم النفس الاجتماعي، أنْ يجهد في إنقاذها بشتّى الوسائل الممكنة.